الدكتور
محمود السيد شيخون

الإعجاز في نظم القرآن

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابى وأخوه محمد
الصنادقية - الأزهر - القاهرة

تمهيـــد

نبذة تأريخية عن حيـاة العرب الادبية قبل الاسـلام :

تروى كتب التـاريخ والسير أن العرب قبل الاسـلام كانوا قبائل متفرقة مختلفة النزعات ، وكاد تكل قبيلة تكون وحدة مستقلة ، لهـا مركزها بين القبـائل الاخرى ، ولهـا حدودها الخاصة ، وحمـاها المستقل الذى تذود عنه وتفنى فى حمايته ، وكانت كل قبيلة تعتز بماضيها ، وتحرص على تأريخ نضال آبائها وأجدادها وجهادهم لاعلاء شـأن القبيلة ، ورعاية أفرادها وحمايتهم ، كما تعتز القبيلة بحاضرها فتمجد شعراءها ، وتفخر بخطبائها • تتغنى بأشعارهم وتروى خطبهم ، لان الخطيب أو الشـاعر كان لسـان القبيلة الناطق ، ينشر مفاخرها ، ويتغنى بأمجادها ، ولذلك كان الشـعراء والخطباء يتمتعون بمنزلة عالية فى المجتمع العربى آنذاك • ونتج عن ذلك أن راجت سـوق الادب رواجا كبيرا ، وأدى هذا الرواج الى التنافس بين الشعراء والخطباء أيهم أقـدر على اظهار قبيلته بالمظهر اللائق بهـا بين القبائل الاخرى • ثم تطور هذا التنافس الى المبـاراة فيما بينهم على قدرة التعبير والتصوير وقوة المعـانى وجزالة الاسلوب • فكان من نتيجة ذلك أن سمت أذواقهم ، وتوسعت مداركهم فى النـاحية الادبية حتى وصلوا الى رتبة فى البيـان والبلاغة والادب لم تستطع الاجيـال التى تلتهم أن يلحقوا فى هذا المضمار • وقد وصفهم محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره بأنهم رؤسـاء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشـعر والفصـاحة والسجع والكهانة • كل خطيب منهم بليغ ، وكل شـاعر فيهم فصيح(١) •

وقد وصف عتبة بن أبى سفيان كلامهم أيضـا فقال : « ان للعرب كلاما هو أرق من الهواء ، وأعذب من المـاء ، مرق من أفواههم مروق السـهام من قسيها بكلمات مؤلفـات ، ان فسرت بغيرها عطلت ، وان بدلت بسواها من الكلام استصعبت • فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة اذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنهـا مفقودة اذا طلبت(٢) » •

---

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤ ـ ٥

(٢) زهر الآداب للحصرى ج ٣ ص ٤٨

وقد أشـــار الدكتور طه حسين الى النهضة الادبية التى كانت عند العرب، فى نهـــاية العصر الجـــاهلى أى قبيل نزول القرآن ، وأن العرب فى ذلك الوقت كانوا قد بلغوا الذروة فى البيـــان والبلاغة والادب فقال : « ان العرب فى نهاية العصر الجاهلى أخذوا يخضعون صناعة الكلام لنقـــد أولى ، ولكن فى أغلب الاحوال سديد ، لانهم كانوا يعولون فيه على سلامة الذوق ، وقد بلغ بهم الامر أن استكشفوا عيوبا فنية فى النظم ، ووضعوا من النصح والارشـــاد ما يفيد كلا من الخطيب والشـــاعر فى صناعته(١) » .

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٤ ط بولاق سنة ١٩٤١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله ٠ نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وعلى آله وصحبه ، ومن أتبع سنته ، واهتدى بهداه الى يوم الدين ٠ وبعد

فهذه دراسات حول النظم القرآنى أردت أن أوضح من ورائها بعض ما ينطوى عليه هذا الكتاب المبين من روعة البيان واعجازه ٠ وكيف أنه أعجز أساطين البيان من العرب مع أنه منظوم من نفس الحروف والكلمات التى ينظمون منها كلامهم ؟ وكيف أنه بنظمه الفريد قد أثر فيهم تأثيرا بليغا ، فطار بألبابهم واستولى على أحاسيسهم ومشاعرهم ، وأدهش عقولهم ، وأوقعهم فى حيرة، ووقفوا أمامه مذهولين فمنهم من خضع لسلطانه وأذعن لبلاغته وبيانه ، فدان له وآمن به عن ادراك وعقيدة بعد أن تذوق حلاوته ، ولمس اعجازه بفطرته العربية السليمة ، وملكته النافذة الحكيمة ومنهم من ضاق به ذرعا فكابر وعاند ، وأضله الله على علم فأنكر الشمس فى وضح النهار ، وجحد التنزيل بعد اليقين والاستيقان ٠

ولم أقصد من وراء هذه الدراسات الى الاستقراء والاستقصاء فمثلى يستعصى عليه مثل ذلك فى هذا الميدان ، وانما الذى قصدت اليه ، هو أن أنال رشفة من بحر هذا البيان الالهى ، أمتع بها الخاطر والنفس ، وأسعد بها الفكر والخيال ٠ وحسبى وحسب القارىء أن نقف من وراء ذلك وقفة المتأمل الخاشع عند شاطىء هذا اليم ٠٠ نمتع البصر فيما عجز عن ادراك كنهه العقل ، ونرهف السمع لهذا الذى سجد لبيانه البيان ٠فكم من جمال تذوب تأثرا به النفس ، ولا يحده الفكر والعقل ، وكم من حقيقة جاثمة وراء حدود دلالة النطق والكلام ، فلا يعبر عنها الا الحيرة الخاشعة ، ولا يتبينها سوى صادق الاحساس ٠

وقد وضعت هذه الدراسات تحت عنوان « الاعجاز فى نظم القرآن » ٠

وقد مهدت لها بالحديث عن الحيـاة الادبية عند العرب قبيل نزول القرآن ، وما كانوا عليه من الفصـاحة والبيان ٠ ثم قسمت هذه الدراسـات الى خمسة فصـــول :

تكلمت فى الفصـل الاول عن الاعجاز كيف نشـأ ؟ وكيف تطور ؟ ثم أمطت اللثـام عن وجوهه ٠وتكلمت فى الفصل الثانى عن الذين كتبوا فى الاعجاز ، فكشف القناع عن جهودهم فى هذا المجـال ومدى تأثر بعضـهم ببعض فى هذا الميـدان ، وناقشت آراءهم وبنيت وجه الصـواب فيهـا ٠

وفى الفصـل الثالث تكلمت عن مظاهر الاعجاز فى القرآن الكريم ، موضحا هذه المظاهر بالكثير من الامثلة القرآنية ٠

وفى الفصـل الرابع تكلمت عن الاعجاز وعلاقته بالصور والالوان البلاغية، وهل هذه الصـور والالوان معجزة فى القرآن أولا ؟ ووضحت القول فى ذلك ، وأوردت بعض الامثلة القرآنية المشتملة على هذه الصـور والالوان ، وقمت بتحليلهـا حسب طاقتى وعلى قـدر فهمى وادراكى ٠

ثم تحدثت فى الفصل الخامس والأخير عن الاعجـاز فى نظم القـرآن المنبعث من نظمه الفريد ٠ وقد أيدت ذلك ببعض الأمثلة القرآنية ٠٠

والله الكريم أسـأل أن يجعل هذه الدراسـات خالصـة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا دائمـا لخـدمة القرآن العظيم ٠ انه سميع مجيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل ٠٠

الدكتور
محمود السيد شيخون
الاستاذ المساعد فى الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة

الفصـــل الاول

الاعجـــاز

نشـأته ـ تطوره ـ وجوهه

فى هذا الفصـل من البحث أريد أن أميط اللثـام عن فكرة الاعجـاز كيف نشـأت ؟ وكيف تطورت ؟ فأقول طالبـا العون والتوفيق من الله تعالى : ان فكرة الاعجـاز قديمة وموغلة فى القـدم اذ ان أصولهـا ترجع الى أوائل نزول القرآن الكريم ، فحين نزل جبريل الامين بالقرآن الكريم على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله علية وسلم كان العرب آنذاك قد بلغوا القمة فى الفصاحة والبيـان كما أشرت الى ذلك قبلا ، فلمـا سمعوه أصـابتهم الدهشة ، ووقفوا أمام روعة بيـانه حيـارى مذهولين ، فكان اعجازه عند هؤلاء القوم ينفذ الى أحاسيسهم ومشـاعرهم فيستولى عليهـا ، ولقد حكى القرآن حيرتهم وما دار على ألسنة شيوخهم وكبرائهم ممن لهم قـدم راسخة فى البلاغة والبيـان ، فهذا عتبة بن ربيعة ، وكان مقدما فى قومه ، وقد اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان محمد صلى الله علية وسلم جالسـا وحـده فى المسجد ، وقـد حز فى نفوسهم أن يروا أتبـاع محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ، ويكثرون ، لا سيما بعد أن أسلم حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عتبة لقومه : ألا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيهـا شـاء ، ويكفّ عنا ، فقالوا يا أبا الوليـد : قم اليه فكلمه ، فقـام اليه عتبة ، حتى جلس الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت من العشيرة والمكان والنسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أمورا نذظر فيهـا لعلك تقبل منا بعضها ، قال : قل يا أبا الوليـد ، قال يا ابن أخى ان كنت انما تريد بما جئت ما لا جمعنـا لك من أموالنـا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينـا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيـا(١) تراه لا تستطيع رده عن

---

(١) الرئى : بفتح الراء فهمزة مكسورة فياء مشددة : التابع من الجن وقيل التابع المحبوب من الجن « النهاية لابن الاثير مادة « رأى » .

نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل يداوى منه حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال : أقد أفرغت يا أبا الوليد قال : نعم قال فاسمع منى قال افعل قال بسم الله الرحمن الرحيم حم : تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون(١) » ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك فقام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس قالوا اننا وراءك يا أبا الوليد ، قال : ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كيفتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم(٢) .

وهذا الوليد بن المغيرة ، وهو من رؤساء قريش ومن بلغائهم وأبينائهم قد أفزعه وفود العرب الى مكة ، وقد سمعوا بأمر محمد صلى الله عليه وسلم فيما سيوا جهونهم ، فأشار على قومه ، أن يجمعوا العرب فاجتمع حوله نفر من قريش ، وكل منهم مسحور بهذا القرآن متحير فى أمره ، لا يدرى ماذا يقول ؟ فأرادوا أن يوكلوا الامر الى الوليد بن المغيرة باعتبار منزلته ، وسنه ، يقول رأيه فى محمد والقرآن المنزل عليه ، ولكنه رفض ، وقال : بل أنتم فقولوا نسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزة الكاهن ، ولا سجعه ، قالوا : فنقول : انه مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه وسوسته ،

---

(١) فصلت : ١ ـ ٤

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٩ ط بولاق ـ نهاية الارب للنويرى ج ١٦ من ص ٢١٠ ـ ٢١١

قالوا فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس قال والله : ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لمغدق ، وان فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا ، الا عرف انه باطل ، وان أقرب القول فيه ، أن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدم الموسم ، لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة **قوله : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له ما لا ممدودا ، وبنين شهودا ،** ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبروا ستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر(١) .

وأنزل الله فى النفر الذين كانوا معه - أى مع الوليد بن المغيرة - يصنفون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من عند الله «الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون»(٢) .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان من أساطين العرب وأبينائهم ينمو الى سمعه أن أخته وزوجها قد أسلما ، فيذهب الى بيت أخته ، يريد أن يبطش بها ، ولكنه حين سمع من أخته وهى تتلو القرآن أو قرأ الصحيفة التى بيدها لم يستطع الوقوف أمام بيان القرآن وروعة نظمه فسرعان ما سكن غضبه ، وهدأت أعصابه ، وطلب محمدا ليعلن اسلامه .

وينقل ابن الاثير فى البداية عن البيهقى ما نصه : « أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، والاخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا

---

(١) سورة المدثر آية ١١ - ٢٥

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٠ وما بعدها .

أصبحوا ، وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستعمون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه ، فباتوا يسمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا فلما أصبح ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها فقال الاخنس ، وأنا والذى حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال : ما سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع له أبدا ، ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس ابن شريق »(٢) .

ويروى عن أبى عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »(١) فسجد ، وقال سجدت لفصاحته ، وسمع آخر رجلا يقرأ « **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا** »(١) فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام »(٣) .

ولقد كان تأثير القرآن العظيم فى مشركى قريش عاما ، فلم ينج عنه منهم كبير ولا صغير ، رئيس ولا مرؤوس تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم ، بل لقد كان فى رؤسائهم أشد وفى فصحائهم وبلغائهم أقوى من عامتهم ، لانهم أدرى بفنون الكلام وأساليبه .

---

(١) البداية والنهاية فى التأريخ لابن كثير ج ١ ص ٦٤ ط . مصر .
(٢) سورة الحجر آية ٩٤
(٣) سورة يوسف آية ٨٠
(٤) القاضى عياض ص ٢١٧ وما بعدها .

وأمام هذا التأثير القوى الذى أدهشهم وأذهلهم ، وأوقعهم فى حيرة انقسموا فريقين :

فريق أذعن وسلم ، وآمن واهتدى ، وفريق كابر وعاند ، ورأى أن خير طريقة للخلاص من تأثير هذا القرآن الانصراف عن سماعه ، وصرف الناس أيضا ، فنزل القرآن على لسانه فقال تعالى : ((**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**))(٤) .

فكانوا يجلسون بسبيل الناس لا يمر بهم أحد الا حذروه من الاجتماع بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستماع له(٥) .

وهذا الفريق ظل فى عناده وكفره وجحوده وانكاره وقال : ((**قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين**))(٦) .

وحينئذ تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، وأفرغ هذا التحدى فى قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب وأنهضهم الى ذلك بالتقريع والتحميس ، ومختلف أشكال التحدى فقال لهم مرة مؤنبا ومقرعا :

((**أم يقولون تقوله . بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين**))(٧) .

وقال لهم بأسلوب آخر ((**أم يقولون افتراه . قل فأتوا بعشر سور مثله فمتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم** يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله لا اله الا هو فهل أنتم مسلون))(٨)
وقال لهم مرة : ((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**))(٩) ولما عجزوا عن الاتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله وبان عجزهم قال لهم فى تحد بلغ القمة فى البيان ((**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل**

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩١ ط . بولاق .
(٣) سورة الانفال آية ٣١
(٤) سورة الطور آية ٣٣ ـ ٣٤ .
(٥) سورة هود ١٣ ـ ١٤
(٦) سورة البقرة ٢٣ ـ ٢٤

هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٢) وصدق الله العظيم وتمت المعجزة وثبت الاعجاز لهذا الكتاب العظيم الذى لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٠

ومع عجزهم عن التحدى فان بعضا منهم قد أكلت الغيرة قلبه وسـولت له نفسه الشريرة أن يعارض القرآن فنزل الميدان وأتى بكلام بارد مضحك وأساليب سخيفة كانت مثار سخرية العقلاء فيما بعد ، ومن هؤلاء مسليمة ابن حبيب الكذاب الذى تنبأ باليمامة فى أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد زعم أن له قرآنا آخر يوحى اليه من السماء وقد جاء فى قرآنه هذا فيما رووا قوله :

« يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ، ونصفك فى الطين ، لا المـاء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » ومن ذلك قوله : « والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فاووه ، والباغى فناوئوه» وقوله : « والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون »(٣) ٠

وقوله : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » ٠

ومن هؤلاء أيضا عبلهة بن كعب الذى يقال له الأسود العنسى ، وطليحـة بن خويلد الأسدى ، وسجاح بنت الحارث التميمية ، والنضر بن الحارث ٠

وقد رأيت ألا أطيل فى نقل كلامهم فى المعارضة ، لأنه لا يسـاوى المداد الذى يكتب به ومن أراد الاطلاع على مثل هذا الكلام البارد المضحك السخيف فعليه بكتب الجاحظ ، واعجاز القرآن للرافعى ، وتفسير الطبرى ولكن ـهذا الفريق سرعان ما تخاذل ، وافتضح أمره ، وانقطعت أنفاسه ، وظهر عجـزه وبان خطله مما سبق يستبين لنا أن ادراك العرب الذين عاصروا نزول القرآن للاعجاز كان فطريا غير مسبوق بدراسة ، ولا طول نظر فى الكتب ، وانمـا أدركوا هذا الاعجاز بفطرتهم العربية السليمة ، وما جباهم الله من ذوق سليم وفصاحة وبيان ، ولذلك كان ايمانهم بهذا الدين ايمانا راسخا ، ناضـلوا دونه ، وبذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيله ٠

---

(١) سورة الاسراء ٨٨

(٢) المذق : مزج اللبن بالمـاء والمجع : اللبن يشرب على التمر ٠

ولكن بعد أن تقدم الزمن ، وانتشر المسلمون فى أرجاء الأرض بانتشار الاسلام فى الأمصار وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة ، واختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة ، لم يعد اعجاز القرآن يدرك بالفطرة ، وانما صار ادراكه يتطلب دراسة واعية ومستفيضة للغة العربية ، واحاطة بغريبها ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها ، لتنمو لدى من يريد التصدى لمعرفة الاعجاز ملكة تمكنه من ادراك هذه الناحية فى القرآن العظيم ، فانتقل الاعجاز من مرحلة « التذوق الفطرى » الى مرحلة « التذوق العلمى » الذى يجب أن تسبقه دراسة واسعة لاساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لادراك ناحية الاعجاز فى القرآن العظيم ، وهذا يعنى أن الاعجاز الذى كانت تدركه أكثرية العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم ، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، هى التى بيدها وسائل التذوق الفنى ، ولهذا كثرت التساؤلات والاستفهامات حول اعجاز القرآن الكريم فيم وقع الاعجاز ؟ وفى أى من القرآن ؟ وما هى وجوه هذا الاعجاز ؟ ولماذا صار القرآن معجزا ؟ وهل هو معجز بلفظه أو معناه أو بما يشتمل عليه من المغيبات أو التشريعات ؟

وقد ساعد على كثرة هذه الاستفهامات ، نقل ما دار على ألسنة المعاندين من قريش ، وآيات التحدى التى جاءت لتتحدى من تسول له نفسه الجحود بايات الله ، ثم الآيات الكثيرة التى نزلت لتحث المسلمين على تدبر معانى القرآن ، وتفهم أحكامه ، وقد استغل الشعوبيون هذه الناحية - أعنى كثرة الاستفهامات - فراحوا ينفثون سمومهمفى صفوف المسلمين ليشككوا ضعاف الايمان فى عقيدتهم كالجعد بن درهم(١) .

ولما ازداد نشاط هؤلاء المغرضين الحاقدين من الشعوبيين فكثرت مطاعنهم فى القرآن الكريم ، واتخذت المسألة شكلا سافرا ، وصارت تشكل خطرا على العامة من المسلمين هب المخلصون من علماء المسلمين للذب عن قرآنهم ، والدفاع عنه ، ورد كيد الكائدين فى نحورهم .

ومن هنا نجد دراسة اعجاز القرآن تتخذ شكلا آخر هو « الدفاع عن القرآن الكريم ، ونفى ما أثاره هؤلاء الشعوبيون من شكوك وأباطيل » .

---

(١) هو من الموالى ، وقد جاهر بارائه الغريبة ، والمخالفة لنصوص القرآن الكريم فقال : أولا يخلق القرآن ثم أنكر تكليم الله لموسى عليه السلام ، كما أنكر اتخاذ الله ابراهيم خليلا ، وكان أيام هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فلما سمع به هشام طلبه فظفر به ، وأرسله الى خالد بن عبد الله القسرى عامله على العراق ليقتله فضحى به خالد صباح يوم عيد الأضحى المبارك وكان ذلك حوالى ثمان عشرة ومائة للهجرة .
« الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٣٢٩ ط . ليدن » .

ويمكننا أن نعتبر كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ مظهر النشاط العلماء فى هذا الباب وذلك لسببين :

الأول : سبب تأليفه لهذا الكتاب ، حين استقدمه الفضل بن الربيع الى بغداد سنة ١٠٨ هـ فسأله أحد جلساء الوزير ، وهو ابراهيم بن اسماعيل الكاتب عن قوله تعالى **« طلعها كأنه رؤوس الشياطين »**(١) قائلا لأبى عبيدة انما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، متوهما السائل بأن الله سبحانه وتعالى ، قد أوعد بما لم يعرف ، على اعتبار أن الشياطين لا يرون بالعين الباصرة ، فأجابه أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالى انما كلم العرب على قدر كلامهم ، فلم يأت بما لم يألفوه ، واستشهد ببيت امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضـــاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فقارن له أبو عبيدة بين رؤوس الشياطين ، والغول ، لأن العرب لم يروا الغول أيضا ، ولكن أمره كان يهولهم .

السبب الثانى : هو موضوع هذا الكتاب الذى يتناول فيه أبو عبيـــدة طرق التعبير القرآنى ليعرضها على ما للعرب من فنون فى التعبير ، فيجـد لهـا مثيلا فيه ، فكأن أبا عبيدة فى عمله هذا يريد أن يدلل على عربية القرآن وفصاحته ، وأنه لم يأت بغريب فى التعبير لم تألفه العرب .

ولابد أن يكون هذا الاستفسار الذى جوبه به أبو عبيدة مثلا واحدا لحركة واسعة كانت تستهدف النيل من القرآن الكريم ، وهذه الآية التى استثارت أبا عبيدة كانت هى نفسها – على ما يبدو – موضع جدل ونقاش أثاره هؤلاء الطاعنون ، ليدللوا بها على عدم فصاحة القرآن ، ولذلك نرى الجاحظ يورد نفس الآية ، ليدحض ما دار حولها من الافتراءات(٢) .

ثم جاء من بعده الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فتصدى للشعوبين الحاقدين ووقف فى وجوههم فألف كتاب النبوة ليرد به على هؤلاء الشعوبين كما صرح هو نفسه بذلك فقال : « فكتبت كتابا أجهدت فيه نفسى ، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلى ، فى الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعان ، فلم أدع فيـه مسألة لرافضى ، ولا لحديثى ، ولا لحشوى ، ولا لكافر مباد ، ولا لمنـافق

---

(١) سورة الصافات آية ٦٥

(٢) الحيوان ج ٦ ص ٢١١ – ٢١٣

متموع ، ولا أصحاب النظام ، ولن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القـــرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ، ولا دلالة »(١) .

ويقول الجاحظ أيضا : « ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الايجاز والحذف ، وبين الزوائد ، والفضـول ، والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة(٢) .

وقد امتدح ابن الخياط هذا الكتاب فقال : « لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة ، واحتج للنبوة بلغ فى ذلك ما بلغه الجـاحظ ، ولا يعـــرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد صـلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ »(٣) .

ولم يقتصر الجاحظ فى دفاعه عن القرآن الكريم على كتـاب النبـــوة و « نظم القرآن » وانما نراه فى أكثر مؤلفاته لم يترك فرصة الا ويـنـدد بأعداء القرآن ، ففى احدى رسائله ، بعد أن يدلل على عجز العرب عن الوقوف أمام فصاحة القرآن ، ويأسهم من معارضته ، والتجائهم الى بذل أرواحهم وأموالهم فى محاربته يقول : « وهل يذعن الأطراب ، وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم، وهم أشد خلق الله أنفة ، وأفرطه حمية ، وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه - أى القرآن - فى كل منهل وموقف والناس موكولون بالخطاب ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهدا ، فقد سمعه ، ومن كان غائبا فقد أتاه به ، من لم يزوده ، واما أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة ، وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء ، والدهاة والحكماء مع اختلاف علنهم ، وبعد هممهم ، وشدة عداوتهم على بذل الكثير ، وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التنديد ، ومن جليل الأمور التى لا تخفى على الجهـال فكيف على العقلاء وأهل المعارف ؟ فكيف على الأعداء ؟ لان تحبير الكلام أهون من القتال ومن اخراج المـال » .

ثم يصرح الجاحظ بأسماء نفر من الشعوبيين ، ليندد بهم فيقـول : « والذى منعهم - يعنى العرب - من ذلك هو الذى ملأ ابن العوجاء ، واسحاق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين اسـتبدلوا بالعز ذلا ، وبالايمان كفرا ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة بالزندقة خاصة ، فقد كانوا يضعون الآثار ، ويولدون الأخبار ويبثونهـا فى

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٢
(٢) الحيوان ج ٣ ص ٧٦ ط . هارون .
(٣) الانتصار لابن الخياط ص ١٥٤ - ١٥٥

الأمصار ، ويطعنون فى القرآن ، ويسألون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامه ويضعون الكتب على أهله »(١) ٠

وكذلك فى كتابه « البيان والتبيين » نراه كثيرا ما يشيد بفضل العرب، وبلاغتهم وأخلاقهم(٢) وما ذلك الا كرد فعل للموجة التى سادت المجتمع الاسلامى ، والتى يحاول فيها المغرضون من الشعوبيين التقليل من شأن العرب وتراثهم الفكرى ٠

ثم جاء بعد الجاحظ « ابن قتيبة » المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فندب نفسه للدفاع عن القرآن الكريم فعمد الى تأليف كتابه « تأويل مشكل القرآن » وكان هذا سبب تأليفه لهذا الكتاب ، كما أوضحه ابن قتيبة نفسه فقال : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه ، وهجروا ، واتبعوا **((ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله))(٣)** بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة فى اللحن وفساد النظم ، والاختلاف ، وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه فى القلوب، وقدحت بالشكوك فى الصدور ، فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألفت هذا الكتاب جامعا لتويل مشكل القرآن مستنبعا ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والايضاح ، وحاملا ما لا أعلم فيه مقالا لامام مطلع على لغات العرب ، لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الامكان من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أقضى عليه بتأويل ، ولم يجز لى أن أنص بالاسناد الى من له أصل التفسير ، اذ كنت أقتصر على وحى القوم حتى كشفته وعلى ايمائهم حتى أوضحته ، وزدت فى الالفاظ ، ونقصت ، وقدمت ، وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الامثال والاشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون كلا(٤) ٠

وقد ركز ابن قتيبة اهتمامه على الآيات التى كانت موضع جدل ونقاش من قبل هؤلاء الطاعنين ، وقد نوه عن ذلك أثناء كلامه على المتشابه والمشكل من القرآن فقال : « وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ فى الظاهر ، والمعنيان مختلفان قال الله عز وجل فى وصف ثمر الجنة : **((وأتوا به**

---

(١) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ التى نشرها السندوسى ص ١٤٥ ١٤٦ ط ٠ مصر سنة ١٩٣٣ م

(٢) البيان والبيتين ج ٣ ص ١٣ ط ٠ مصر سنة ١٣٣٢ هـ ٠

(٣) آل عمران : ٧

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٧ ـ ١٨

متشابها »(١) أى متفق المناظر مختلف الطعوم وقال : **« تشابهت قلوبهم »(٢)** أى يشبه بعضها بعضا فى الكفر والقسوة ، ومنه يقال : اشتبه على الامر · اذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما · وشبهت على · اذا لبست الحق بالباطل ، ومنه قيل لاصحاب المخاريق · أصحاب الشبه ، لانهم يشبهون الباطل بالحق ، ثم يقال لكل ما غمض ودق · متشابه ، وان لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبهة بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة فى أوائل السور · متشابهة ، وليس الشك فيها والوقوف عندها ، والتباسها بها ، ومثل المتشابه المشكل ، وسمى مشكلا لأنه أشكل أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله ، ثم قد يقال لما غموضه من هذه الجهة مشكل · وقد بينت ما غمض معناه لالتباسه بغيره ، واستتار المعانى تحت لفظه ، وتفسير المشكل الذى ادعى على القرآن فساد النظم فيه ، وقدمت قبل ذلك أبواب المجاز اذ كان غلط المتأولين من جهته »(٣) ·

وقد استهل ابن قتيبة كتابه هذا بمقدمة تناول فيها صفة القرآن ، وأنه المعجزة الكبرى التى نسخت سالف الكتب السماوية مشيدا بعجيب نظمه ، وعظيم معانيه ، مع قلة ألفاظه ومبانيه ، ودلل ابن قتيبة على ذلك بايات من القرآن لينبه على ما أودعه الله فيها من المعانى بأسلوب لطيف · يقول ابن قتيبة : « فان شئت أن تعرف ذلك « أى لطف أسلوب القرآن » فتدبر قوله تعالى : **« خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(٤)** ·

كيف جمع الله له — أى للرسول صلى الله عليه وسلم — بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لان فى أخذ العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، واعطاء المانعين ، وفى الامر بالعرف تقوى الله ، وصلة الارحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات ، وانما سمى هذا وما أشبهه عرفا ومعروفا لان كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن اليه ، وفى الاعراض عن الجاهلين ، الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج ·

وقوله تعالى اذ ذكر الأرض فقال : **« أخرج منها ماءها ومرعاها »(٥)** ·

كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للانام من

---

(١) البقرة : ٢٥
(٢) البقرة : ١١٨
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٧٤ — ٧٥
(٤) الاعراف : ١٩٩
(٥) النازعات : ٣١

العشب والشجر والثمر والعصف(١) واللباس والنار والملح لان النار من العيدان والملح من الماء ، وينبئك أنه أراد ذلك قوله تعالى : « **متاعا لكم ولأنعامكم** »(٢) ثم يمضى ابن قتيبة فى ايراد آيات أخرى(٣) ليتناولها بنفس الطريقة ، وكأن ابن قتيبة فى مقدمته هذه يريد أن يبين للقارىء طرفا من بلاغة القرآن الكريم ٠

وبعد هذه المقدمة يعقد ابن قتيبة بابا يتكلم فيه عن العرب وما خصهم الله به من العارضة(٤) وقوة البيان ، وتفننهم فى أساليب كلامهم ، ومقدرتهم الفطرية على الارتجال فى المحافل والاندية والمجتمعات ، ثم يتكلم عن اللغة العربية وميزاتها وخصائصها التى انفردت بها عن سائر اللغات بسبب حروف هجائها واعرابها ، ثم يورد أمثلة يبين فيها أثر العرب فى استقامة المعنى ووضوحه ، فيستهل هذا الباب بقوله : « **وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الاساليب ، وما خص** الله بها لغتها دون جميع اللغات ، فانه ليس فى جميع الامم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصى من الله لما أرهصه فى الرسول وأراده من اقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبى من المرسلين من أشبه الامور بما فى زمانه المبعوث فيه »(٥) ٠

ثم يتكلم ابن قتيبة عن أسلوب المجاز فى اللغة العربية فيقول : « وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طريق القول ومأخذه ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والاخفاء والاظهار والتعريض والافصاح والكناية والايضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة سنراها فى أبواب المجاز ان شاء الله وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم أن ينقله الى شيىء من الالسنة كما نقل الانجيل عن السريانية الى الحبشية وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله بالعربية لان العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب »(٦) وهو يريد من كل ما ذكره من خصائص اللغة

---

(١) العصف : ورق الزرع وما لا يؤكل منه « لسان العرب ج ١ ص ١٥٢ ط بولاق » ٠

(٢) النازعات : ٣٣

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٥ وما بعدها ٠

(٤) العارضة : هى قوة الكلام وتنقيحه والرأى الجيد « لسان العرب ج ٩ ص ٤٣ » ٠

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٠

(٦) المصدر نفسه ص ١٦

العربية وأساليبها أن يبرهن على أنه لا يمكن لأحد الوقوف على أسرار القرآن وفهم أسلوبه ومعانيه الا بالمام بأساليب اللغة العربية والوقوف على فنون التعبير فيها ، هذا بالنسبة الى العربى أما بالنسبة لغير العربى فانه يحتاج الى ممارسة وطول نظر فى لغة العرب حتى يتمكن من ذلك ٠

ثم استبعد ابن قتيبة امكان نقل القرآن الى غير اللغة العربية لعدم اتساع تلك اللغات لاساليب اللغة العربية وطرق التعبير فيها ٠ وهذا الحكم من ابن قتيبة هو عين الحقيقة لان المترجم وان تمكن من نقل معانى الالفاظ القرآنية الى اللغة التى يريد ترجمة القرآن اليها لا يتمكن من أن ينقل الى تلك اللغة أسرار لغة العرب وايحاءات التركيب التى امتاز بها القرآن الكريم والتى تملك على العربى أحاسيسه ومشاعره وتهزه حين يطلع عليها ٠ ولما كان المترجم عاجزا عن ذلك فلا يجوز اذن ترجمة القرآن الى غير لغته لان الترجمة ستفقده صفة من صفات اعجازه ٠ ثم بعد ذلك يبدأ ابن قتيبة فى سرد طعون الملحدين فى القرآن تحت عنوان« الحكاية عن الطاعنين » فيذكر فى هذا الباب الآيات التى لاكتها ألسنة هؤلاء الشعوبيين مبينا وجهة نظرهم ومسجلا اعتراضاتهم ثم يذيل هذا الباب بقوله : « وقد ذكرت الحجة عليهم فى جميع ما ذكروا وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ليكون الكتاب جامعا للفن الذى قصدت له »(١) ٠

ثم يصنف ابن قتيبة ردوده على هذه الافتراءات الى أبواب هى : **« باب** لما يتعلق بوجوه القراءات » و « باب لما يتعلق باللحن » وكذلك التناقض والاختلاف والمتشابه والمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه والكناية والتعريض ومخالفة ظاهرا للفظ معناه وتأويل الحروف التى ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم فأفرد ابن قتيبة لكل من هذه الانواع بابا خاصا بها مستقرئا معظم سور القرآن ليشير الى ما ورد فيها من ذلك ٠

ففى باب الرد عليهم فى وجوه القراءات يقول ابن قتيبة : « وأما ما اعتلوا به فى وجوه القراءات من الاختلاف فانا نحتج عليهم فيه بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرأوا كيف شئتم » وقد غلط فى تأويل هذا الحديث قوم فقالوا السبعة الاحرف وعد ووعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج ٠ وقال آخرون هى سبع لغات فى الكلمة ٠ وقال قوم : حلال وحرام وأمر ونهى وخبر ما هون كائن بعد وأمثال(٢) ٠ وليس شيىء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل ومن قال فلان يقرأ بحرف

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٥

(٢) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ج ١ ص ٢٢ - ٢٥

أبى عمرو(١) أو بحرف عاصم(٢) فانه لا يريد شيئا مما ذكروا وليس يوجد فى كتاب الله حرف قرىء على سبعة أوجه يصح فيما أعلم . وانما تأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » أى على سبعة أوجه متفرقة فى القرآن يدلك على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فاقرأوا كيف شئتم » وقال عمر : « سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أقرأنيها فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : « ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا منه ما تيسر ، فمن قرأ قراءة عبد الله فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبى فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد فقد قرأ بحرفة(٣) والحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم وعلى الكلمة الواحدة ويقع الحرف على الكلمة بأسرها والخطبة كلها والقصيدة بكمالها »(٤) .

ثم يمضى ابن قتيبة فيتكلم على القراءات السبع وأوجه الاختلاف بين كل من هذه القراءات ، وتحت عنوان « باب التناقض والاختلاف » يدفع ابن قتيبة فيقول : « فأما ما نجلوه من التناقض فى مثل قوله تعالى : **« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان »(٥)** وهو يقول فى موضع آخر : **« فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون »(٦)** فالجواب فى ذلك أن يوم القيامة كما قال الله تعالى : **« مقداره ألف سنة »(٧)** .

ففى مثل هذا اليوم يسألون ، وفيه لا يسألون لانهم حين يعرضون ويوقفون على الذنوب يحاسبون ، فاذا انتهت المسألة ووجبت الحجة **« انشقت السماء فكانت وردة كالدهان »(٩)** وانقطع الكلام وذهب الخصام ، وأسودت وجوه قوم ، وأبيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت

---

(١) هو أبو عمرو سعيد بن اياس الشيبانى توفى سنة ٩٦ هـ

(٢) هو عاصم بن أبى النجود أحد القراء السبعة توفى سنة ١٢٧ هـ « الذهبى : طبقات القراء ورقة ٢٤ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٣٧ تأريخ » .

(٣) يقصد عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت « تأويل مشكل القرآن حاشية ص ٢٧ » .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٢٦ ـ ٢٧

(٥) الرحمن : ٣٩

(٦) الحجر : ٩٢

(٧) المعارج : ٤

(٨) الرحمن : ٣٧